مفاوضات الفتح العربي لمصر

للأســـتاذ السيد يعقوب بكر

[هذا البحث قسمناه قسمين : في القسم الأول حققنا هذه المفاوضات من الوجهة التاريخية ووصلنا إلى التسليم بصحة وقوع بعضها ونفي وقوع البعض الآخر . وفي القسم الثاني حاولنا أن نتلمس الروح المسيطرة على طرفي كل مفاوضة صح عندنا وقوعها]

القسم الأول

(١) المفاوضة الأولى

١ — ذكرها أبو المحاسن في النجوم الزاهرة (ج ١ ص ١٣ — ٢٤ ط دار الكتب) نقلاً عن ابن كثير في تاريخه المسمى بالبداية والنهاية . قال : « لما استكمل المسلمون فتح الشام ، بعث عمر بن الخطاب عمرو بن العاص إلى مصر . وزعم سيف : أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس ، وأردفه بالزبير بن العوّام وفي صحبته بُسْر بن أبي أرطاة وخارجة بن حذافة وعمير بن وهب الجمحي ، فاجتمعوا على باب مصر ، فلقيهم أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف أبو مريام في أهل النيات ، بعثه المقوقس صاحب الإسكندرية لمنع بلادهم .

فلما تصافوا قال عمرو بن العاص : لا تعجلوا حتى نعذر إليكم . ليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد فبرزا إليه ، فقال لهما عمرو : أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا : إن الله بعث محمداً بالحق وأمره به وأمرنا به محمد ، وأدّى إلينا كلّ الذي أُمر به ، ثم مضى وتركنا على الواضحة ، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس ، فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية ويذلنا له المنعة . وقد أعلمنا أننا مفتتحوكم وأوصينا بكم حفظاً لرحمنا منكم ، وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة ؛ ومما عهد إلينا أميرنا : « استوصوا بالقبطيين خيراً » فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيراً لأن لهم ذمّة ورحما فقالوا : قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء ، معروفة شريفة كانت ابنة ملكنا وكانت من أهل منف والملك منهم ، فأديل عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوهم ملكهم وأغربوا ، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام . مرحباً به وأهلاً وأمناً حتى نرجع إليك .

فقال عمرو : إن مثلي لا يخدع ، ولكني أؤجلكما ثلاثاً ، لتنظرا ولتناظرا قومكما ، وإلا ناجزتكم ؛ قالا : زدنا ، فزادهم يوماً ؛ فقالا : زدنا ، فزادهم يوماً ؛ فرجعا إلى المقوقس ... »

فواضح من هذا الكلام أن هذه المفاوضة وقعت عند باب مصر بين عمرو بن العاص من جانب وأبي مريم جاثليق مصر والأسقف أبي مريام من الجانب الآخر

٢ — وذكرها ابن الأثير (ج ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤١ ط ليدن) . قال : « فأخذ المسلمون باب اليون وساروا إلى مصر فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم . فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فأرسل إليهم لا تعجلونا حتى نعذر إليكم ؛ وليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام فكفوا وخرجا إليه فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية وأخبرهما بوصية النبي (ص) بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل عليه السلام ؛ فقالوا : قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء . آمنّا حتى نرجع إليك . فقال عمرو مثلي لا يخدع ؛ ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا وأمر بمناهدتهم »

فواضح من هذا أن ابن الأثير متفق مع ابن كثير في مكان المفاوضة وطرفيها

٣ — وذكرها ابن خلدون (ج ٢ ص ١١٤ — ١١٥ ط بولاق) . قال : « ولما فتح عمر بيت المقدس استأذنه عمرو ابن العاص في فتح مصر فأغزاه ، ثم أتبعه الزبير بن العوام ، فساروا سنة عشرين أو إحدى أو اثنين أو خمس فاقتحموا باب اليون ثم ساروا في قرى الريف إلى مصر . ولقيهم الجاثليق أبو مريم والأسقف قد بعثه المقوقس . وجاء أبو مريم إلى عمرو فعرض الجزية والمنع وأخبره بما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنهم وأجلهم ثلاثاً ورجعوا إلى المقوقس »

فواضح من هذا أن ابن خلدون متفق مع ابن كثير وابن الأثير

٤ — وذكرها الطبرى (مجلد ٥ ص ٢٥٨٤ — ٢٥٨٩ ط ليدن) . قال : « خرج عمرو بن العاصى إلى مصر بعد ما رجع عمر إلى المدينة حتى انتهى إلى باب اليون واتبعه الزبير فاجتمعا فلقيهم هنالك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف فى أهل النيات بعثه المقوقس لمنع بلادهم . فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فأرسل إليهم : لا تعجلونا لنُعذر إليكم وترون رأيكم بعد ؛ فكفوا أصحابهم وأرسل إليهم عمرو أنى بارز فليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام ؛ فأجابوه إلى ذلك وآمن بعضهم بعضاً . فقال لهما عمرو : أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا ... » ويذكر بقية الحديث بما يوافق ماذكره ابن كثير تماماً

فواضح من هذا أن الطبرى متفق مع المؤرخين الثلاثة فى طرفى المفاوضة ، ولكنه يختلف عنهما فى مكان المفاوضة ، فيقول إنها كانت عند باب اليون ويقولون إنها كانت عند مصر .

نترك الآن المؤرخين العرب وننتقل إلى كتاب حنا النقيوسى المؤرخ القبطى المشهور فلا نجد فيه ذكراً لهذه المفاوضة

ويقول الأستاذ بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » (ص ١٩٠ من الترجمة العربية) بصدد هذه المفاوضة : « والظاهر أن قصة بعث المقوقس باثنين من الأساقفة وهما أبو مريام أو (أبو مرتام) وأبو مريم لمفاوضة العرب لم تكن سوى قصة بعث بها الوهم . فلم يكن بين الأساقفة أحد بتلك الأسماء ، ولعل تلك القصة لم تنشأ إلا من الخطأ العظيم الذى وقع فيه مؤرخو العرب عند ما قرأوا أخبار هذه الحوادث ، وقد اختلطت فيها حوادث التاريخ بالخرافات اختلاطاً فاحشاً ، ومسخها النساخون عند نقلهم منها منذ لم يتحروا فيها الدقة . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إنه قد جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة وإنهم فاوضوا عمراً فى ذلك الوقت »

والأستاذ بتلر يقول هذا القول أثناء حديثه عن سير العرب الفاتحين إلى بلبيس ، مما يفهم أنه يرى أن هذه المفاوضة كانت فى بلبيس لا فى مصر كما يقول ابن كثير وابن الأثير وابن خلدون . ثم هو يرى بعد ذلك أنها لم تكن بين عمرو من جانب وأبى مريم ومعه أبو مريام من الجانب الآخر ؛ بل كانت بين عمرو وجماعة عليها أحد الأساقفة

ونحن لا نملك رفض مايقوله الأستاذ بتلر ؛ فنحن لا نملك رفض قوله بحصول المفاوضة فى بلبيس ، لأن اتفاق ابن كثير وابن الأثير وابن خلدون على أنها حصلت عند مصر وتفرد الطبرى بأنها حصلت عند حصن بابليون مما لا يمكن التعويل عليه لما عرفناه ولمسناه من خلط مؤرخى العرب فى كلامهم عن حوادث الفتح . أضف إلى ذلك أن جعل المفاوضة عند بلبيس أكثر ملاءمة لسير حوادث الفتح من جعلها عند مصر . والقارئ لحوادث الفتح يدرك هذا تمام الإدراك . ونحن بالطبع ليس لنا أن نطالب الأستاذ بتلر بالمصدر الذى اعتمد عليه فى القول بأن المفاوضة حصلت فى بلبيس ، وذلك لأنه لم يعتمد فى ذلك على مصدر ما وإنما قال به توفيقاً منه بين حوادث الفتح العربى التى تعرضت لشىء كثير من الخلط

نذر مقبول

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

أرأيتِ حين نذرتِ ؟ ودعا «النوى» فدعوت ؟
من ذا الذى لبّاك ؟ من ذا أجاب مُناك ؟
قدّيسةٌ عطفت على المكنو ن من نجـــواك
ووعدتهـــا فوفيتِ

* * *

قدّيسة سمعت لنا وسعت لتجمع بيننا
من ذا يعيب هواك ؟ من ذا إذن يلحاك ؟
والعـذر عذر صبابتى والحق حـــق صباك
كذبوا إذن وصدقت !

* * *

بالشمع كم أغريتها أتراك أنت خدعتها ؟ !
كلا . وما أقـــواك فى خـدعة وشباك !
فالنـور لب غذائها والنـور صـفو رضاك
شُـــغفتْ به وشُغفت

عباس محمود العقاد

والتشويه فى معظم المصادر العربية وغير العربية

هذا من ناحية مكان المفاوضة ، وأما من ناحية طرفيها فنحن لا نستطيع رفض قوله فى ذلك أيضاً ، لأننا لا نملك على ذلك الرفض قدرة علمية ، ولا سيما أنه عاد فى الملحق الثالث من ملاحق كتابه فأكد قوله وقوّاه . قال (ص ٤٥٠ — ٤٥٢) : « (٢) أبو مريم . وصف الأستاذ (لين بول) هذا الشخص بأنه «جاثليق» مصر ، وأنه انضم إلى جيش عمرو . ولفظ جاثليق لامعنى له إلا (بطريق) ، وأول من ذكره من مراجعنا الطبرى ، فقد جعلته معلوماته الفارسية يذكر ذلك اللفظ على أنه اسم كبير أساقفة مذاهب النسطوريين والأرمن . ويكثر ذكره فى كتب سيبوس وسواه، ويعرفه دكانج Du Cange حق المعرفة . والحقيقة أن الطبرى نفسه يفسر ذلك اللفظ بأنه كبير أساقفة النصارى ، ولكنه يقول بعد ذلك عبارة محيرة وهى أن اسمه كان «ابن مريم» . ويمكننا أن نسلم بأنه قد كان فى مصر رئيسان للأساقفة أو بطريقان فى وقت الفتح وهما قيرس وبنيامين ؛ ونزيد على ذلك أنه قد يجوز أن بطريقاً ثالثاً كان موجوداً عند ذلك وهو بطريق مجهول (للجايانيين) ، ولكن ذلك غير مهم فيما نحن فيه . وابن مريم لا يمكن أن يكون هو (قيرس) ؛ ولكنه قد يمكن أن يكون المقصود به (بنيامين) . ونرجو أن نستطيع البرهان على أن ذلك هو المقصود ؛ فإنه فى مدة ابن الأثير كان الاسم قد حرف إلى (أبو ميامين) ، فى حين أن أبا المحاسن يذكر — وهذا طبعاً صحيح — أن الأسقف القبطى فى الإسكندرية كان اسمه بنيامين . ويذكر السيوطى أن الأسقف القبطى هو (أبو ميامين) وليس على المرء إلا أن يقرن هذه الحقائق بعضها إلى بعض فيرى لأول نظرة أن من أسهل الأمور تحريف اسم (أبا بنيامين) إلى (أبو ميامين) ثم إلى (أبو مريم) ، فى حين أن (ابن مريم) يجوز أن يكون تحريفاً للاسم بنيامين ؛ فإن كتاب العرب كانوا يعرفون أن اسم مريم اسم يجله النصارى إجلالاً عظيماً ، فأخطأوا فى لفظ (أبا) فظنوا أنه اللفظ العربى (أبو) ، فى حين أنه نُزع الجزء الأول من (بنيامين) وهو (بن) وخُلط باللفظ العربى (ابن) ونشأ من ذلك الخلط أسماء عجيبة زادها تحريف النساخ خطأ فذهبوا إلى تسمية الأسقف باسم (أبو مريم) و(ابن مريم) .

ونستطيع الآن أن نستبعد اسم (أبو مريم) ونحن واثقون من أن ذلك الاسم لم يكن ، وكذلك أسماء (أبو مرتم) و (ابن مريم) و (أبو ميامين) ؛ وأن نجعل مكان هذه الصور الغريبة اسم (بنيامين) الذى كان كبير أساقفة القبط فى الإسكندرية . غير أنه لا يكفى أن نستبعد هذه الخيالات فإنا إذا سلمنا أن الشخص التاريخى المقصود هو بنيامين فإنه من المحال أن نقبل ما قيل عنه من أنه اشترك مع عمرو أى اشتراك فيما ذكر عنه ، فلم يحاربه ولم يفاوضه . وأما ما ذكره الطبرى ومن اتبعه كابن الأثير عن بنيامين فإنه قول سخيف . فقد جعلوه قائداً حربياً تحت حكم المقوقس . وقد سعى الطبرى إلى جعل خبره مقبولاً لا تناقض فيه فجعل المقوقس أميراً للقبط ؛ ولكن كل الأدلة المستمدة من المؤرخين المصريين تدل على أن هذين الرأيين غير صحيحين (وكان الطبرى غريباً عن مصر ، ولكنه زارها) . فالمؤرخون المصريون مجمعون على أن بنيامين بقى مختفياً فى الصعيد مدة عشر سنوات قبل الفتح العربى ، وثلاث سنوات فى مدة الفتح . ولو لم يكن لدينا غير ما كتبه ساويرس «حياة بنيامين» لكان ذلك كافياً للبت فى هذا الأمر . غير أن كل المؤرخين من حنا النقيوسى إلى ما بعده متفقون فى هذا الرأى . فكيف إذن نستطيع أن ندرك علة ما يعزوه مؤرخو العرب إلى بنيامين من الاشتراك فى الأمور عند الفتح ؟ والتعليل هو ما يلى : أنهم وجدوا فى الأخبار القديمة أو الروايات السابقة أن زعيم المدافعين والرئيس الذى فاوض فى شروط الصلح مع الفاتحين هو كبير أساقفة الإسكندرية ، ووجدوا بعد الفتح وفى التاريخ القبطى أن كبير الأساقفة فى الإسكندرية المعترف به هو بنيامين ؛ وفوق ذلك لقد كان بنيامين هو الذى جاء إلى عمرو وصالحه فى وقت الفتح الثانى للاسكندرية عند ثورة منويل ؛ فاختلط هذا الخبر بالصلح الذى كان مع قيرس ؛ وعلى ذلك اختلط الشخصان وعُزى إلى بنيامين ما فعله قيرس عند الفتح »

فبقى علينا إذن أن نأخذ رأى الأستاذ بتلر فى هذه المفاوضة

(للبحث بقية)

السيد يعقوب بكر